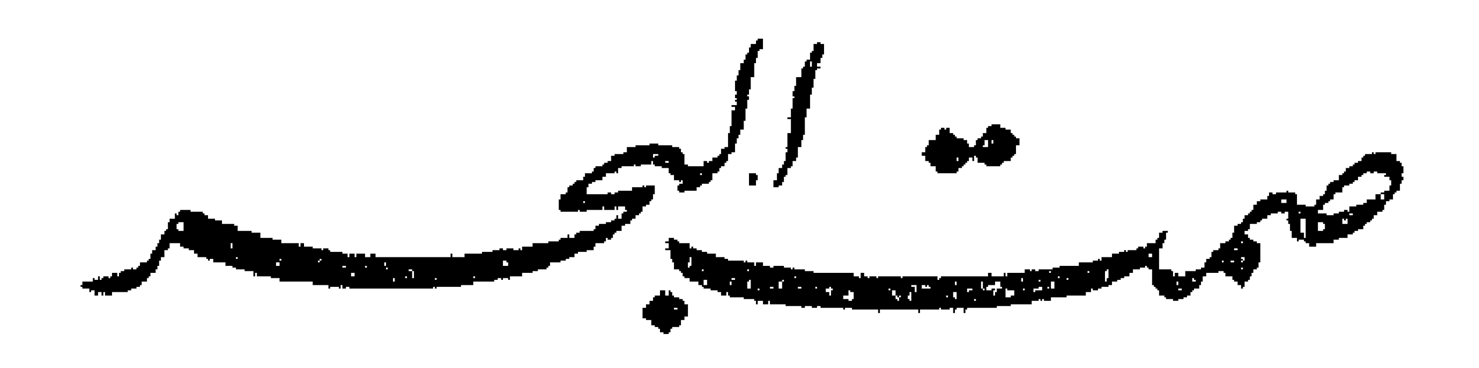

صمت
البحر
ڤيركور
جاد لبيب



تأليف

فيركور

ترجمة

الدكتور جاد لبيب

ملتزم النشر

مؤسسة المطبوعات الحديثة

إلى ذكرى ...

ساله ــ بول ــ رو

شاعر قتلته الحرب

تقديم

ولدت هذه القصة فى منتصف الليل .

ولعل هذا ما حدا إلى تسمية الدار التى أنشئت خصيصاً لإصدارها ، بدار منتصف الليل Editions de minuit .

فقد طبعت هذه القصة ونشرت سراً إبان احتلال فرنسا خلال الحرب الأخيرة ، فلاقت رواجاً وإقبالا عظيمين ، وكان لنشرها فى الظروف المتقدمة أثر بليغ فى إذكاء روح المقاومة فى الشعب المحتل ، وظلت فترة طويلة عنوانا على المقاومة الصامتة الأبية لشعب غلب على أمره ، واضطرته الظروف القاسية أن يقبل عدوه صاغراً فى بلده .. يقبله صامتاً أبياً ، ولكنه صمت كصمت البحر ، يمور بالعنف ، ويخفى القوة المدمرة فى طيات اللين والهدوء .

وقد أثبت المؤلف أنه يؤمن بالمعانى السامية التى ضمنها كتابه ، وأنه ليس مجرد مؤلف قصة خيالية يلقى القول على

عواهنه . ولا أدل على ذلك من موقفه المشرف من الحرب المعتدية الدائرة فى الجزائر ، فقد كان من أوائل من احتجوا على استمرار بلده فى هذه الحرب ، ومن أوائل من وقعوا البيان الشهير باستنكارها والتنديد بها .

ولا شك أن هذه الشجاعة فى الرأى جديرة بمؤلف هذه القصة ، وما انطوت عليه من سمو وأصالة وصدق .

* * *

ولا تهمنا هنا فى شىء مناقشة قضية الحرب العالمية الثانية ووجه الحق فى سير أحداثها ، كما لا يهمنا موقف بلد معين بالذات خلال هذه الحرب . وإنما تهمنا قبل كل شىء مناقشة فكرة الحرب المعتدية ، وما أسخفها وأغربها من فكرة !

إذ كم يكون غريباً ومخزياً أن يقف إنسان القرن العشرين ، المثقف الواعى ، ليقتل أخاه فى الإنسانية والفكر والمدنية والثقافة ، لغير ما سبب واضح أو دافع محدد ، مهما قيل من أسباب واهية سياسية أو اقتصادية لهذه الحروب .

ولقد ناقشت هذه القصة فكرة الحرب المعتدية وبينت مدى غرابتها وبجافاتها لكل القيم الإنسانية ، فى لمسات رائعة ،

هى فى الحق لمسات ريشة فنان مبدع . فقد كان مؤلف القصة رساماً قبل أن يكون كاتباً ، وكانت هذه القصة هى المعبر الذى انتقل عليه من الرسم إلى الأدب ، فجاءت مزاجاً رقيقاً من مزايا وإمكانيات هذين الفنين الأصيلين ، اتخذت فيه الكلمات والعبارات صوراً تكاد تنطق فى بهجة ألوانها ، ودقة تصويرها ، ورقة أدائها .

وأى روعة أخاذة أكثر من موقف بطل القصة الضابط الألمانى، هذا الفنان المرهف ، مؤلف الموسيقى السيمفونية ، وهى من أرق أنواع الفنون وأسماها وأبعدها منالا لغير المثقف ثقافة عميقة عالية . هذا الفنان الذى طالما تاق إلى دخول بلاد جيرانه الفرنسيين ، تحت راية الحب والفكر ، ليرى هذه البيوت التى طالما شارك أهلها آمالهم وأحاسيسهم وثقافتهم ، فإذا به يدخل هذه البلاد وهذه البيوت ، غازياً مغتصباً ،فى قدميه حذاء الجندى الثقيل ، وعلى رأسه خوذته... لا يسبقه استئذان ، ولا تتقدمه بسمة ترحيب . .

وأى عظمة تلك التى شرح بها مؤلف الكتاب ، فى لمسات رقيقة ، أو مواقف معبرة ، مدى ترابط الفكر الإنسانى وتسانده ، مبيناً أن أى بلد واحد لا يستطيع أن يستقل

بالتفرد فى جميع ميادين الفن والفكر .

وكم كان مؤثراً موقف بطل القصة وهو ينفى عن نفسه تهمة المعتدى ، كاشفاً عن طيب نواياه ونبل مقصده . فهو يخلع رداء الجندى ويلبس مسوح الفنان : يعزف الموسيقى ويتكلم عن الفن والأدب ، مبيناً مدى اعتزازه بفن جيرانه وثقافتهم وتراثهم الفكرى ، ومدى تلهفه إلى الاغتراف من هذا المعين ، كصديق أو أخ زائر ، يريد ألا يكون هناك ثمة حاجز بين البلدين ، وليس كغاصب معتد يبغى السيطرة والتسلط .

ولكن كل هذه الجهود تقابل بالصمت المطبق الكثيف ، صمت أبى عنيد ، لا يوصد الطريق فى وجه هذا الإنسان النبيل الذى أوقعته الظروف فى شر ما يبتلى به ضمير إنسان مثقف ، بقدر مايوصد الطريق فى وجه الاعتداء الذى لامبرر له ، وبقدر مايجرّم فكرة الحرب المعتدية ، ويزرى بكل الحجج والفلسفات التى تودى بالإنسانية فى مهاوى هذه البربرية التى يتعين أن يعفّ عن مجرد التفكير فيها إنسان القرن العشرين .

وأخيراً يكتشف بطل القصة أنه قد غرر به ، وأن نواياه النبيلة لا تتفق وأطماع من دفعوه إلى أن يقدم نفسه وقوداً لهذه الحرب ، وقاتلاً لأخيه في الإنسانية والثقافة والمدنية ، فيطلق صرخة اليائس ، ويطلب من قيادته مطلب من مات في نفسه كل أمل : يطلب أن يترك عمله الإداري إلى جبهة القتال ، « إلى الجحيم » على حد تعبيره ، حتى يخلص نفسه وضميره من النار المستعرة فيهما .

* * *

لقد التقيت بهذه القصة الرقيقة منذ أمد طويل يكاد يزيد على عشر سنين ، ومنذ ذلك الوقت البعيد وهي لا تبرح خاطري ، ولا تزال تلح على خيالي ، وتفرض نفسها على تفكيري . وكم من مرة أمسكت بها بين يديّ ، أتأملها تأمل الجوهرة النادرة ، فما أذكر أن ناظري علق بسطر من سطورها إلا وتسمّر كالمأخوذ حتى آخر الفصل أو آخر القصة بأكملها .

لقد قرأتها وأعدت قراءتها مرات عديدة ، لا أكاد أستطيع لها حصراً ، وفي كل مرة كانت تأخذني بسحرها وتغمرني في جوها الرقيق الحالم ، رغم ما يحيط بأحداثها من

عنف ، ورغم أنها تعالج مشكلة القسوة والحرب .

* * *

وإنه لمن دواعى فخرى وغبطتى أن يهتز لهذه القصة أيضا فنان من أكبر وألمع فنانينا المعاصرين ، وأكثرهم عمقاً وثقافة وأصالة ، هو الأستاذ الفنان سيف وانلى . وقد برز اهتمام الأستاذ سيف بهذه القصة فى صورة جديرة به كفنان أصيل ، إذ تفضل فأعد مجموعة كبيرة من الرسوم التى تصوِّر تأثره بأحداث هذه القصة ، وتجاوبه مع معانيها.

وهذه الرسوم وحدها عمل فنى متكامل قائم بذاته، لعله يشرح معانى هذه القصة خيراً من سطورها المكتوبة .

جاد لبيب

فيركور

(جان بريلـير)

ولد فى باريس فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٠٢ ، وحصل على دبلوم الهندسة سنة ١٩٢٣ ، ولكنه انقطع للرسم ونشر فى سنة ١٩٢٦ أول ألبوم ساخر عنوانه : « إحدى وعشرون طريقة للموت العنيف » وفى سنة ١٩٢٧ نشر ألبوماً آخر هو : « افتراضات حول هواة الرسم » ثم فى سنة ١٩٢٩ : « رجل ممزق إلى شرائح » ثم فى سنة ١٩٣٤ : « مفتاح الأحلام الجديد » وفى سنة ١٩٣٥ : « الجحيم » وفى سنة ١٩٣٦ « مظاهر مطمئنة للحرب » وفى سنة ١٩٣٧ : « لحظات صمت » .

وبالإضافة إلى هذه الألبومات ، كان ينشر بانتظام رسوما تحت عنوان : « كشوف دورية » ، جمعت بعد ذلك تحت عنوان : « رقصة الأحياء » (١٦٠ رسما من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٨) .

كذلك وضع رسوم كتب عديدة أثناء هذه الفترة .

وعندما نشبت الحرب كان قد انتهى من إعداد ألبوم جديد اسمه : « النزوات الحلوة » لم يتمكن من نشره ولا يزال كذلك إلى الآن .

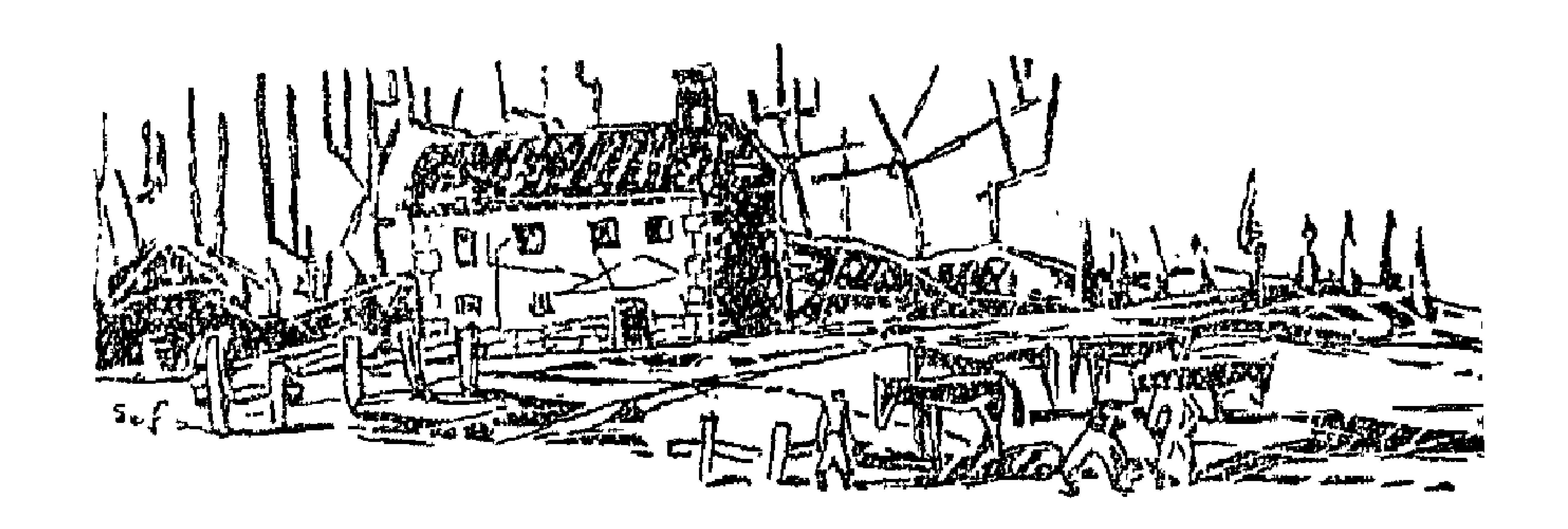
وفى فترة الاحتلال ، رفض كل اشتراك فى الحياة الفكرية تحت رقابة النازى ، وعمل فى قريته كمساعد نجار . واتصل بعناصر المقاومة الفكرية ، ثم ألف تحت اسم « فيركور » كتاب « صمت البحر » فى سنة ١٩٤١ ، وأسس لنشر هذا الكتاب مع بيير دى ليسكير مؤسسة : « كتب منتصف الليل » ، التى نشرت بعد ذلك كتبا لأعلام الفكر الفرنسى كفرانسوا مورياك ، وبول إليوار ، وأندريه شامسون ، وأراجون ، وجيهينو ، وجان كاسو ، وغيرهم . وألف هو أيضا كتابا ثانيا بعنوان « الزحف إلى النجوم » سنة ١٩٤٣ .

ثم نشر بعد التحرير :

رمال الزمن ، صورة صداقة سنة ١٩٤٥ ، أسلحة الليل سنة ١٩٤٦ ، الأعين والنور سنة ١٩٤٨ ، رجل إلى حد ما

سنة ١٩٥٠ ، سلطان النهار سنة ١٩٥١ ، وهى تكملة لأسلحة الليل ، ثم الحيوانات المتغيرة سنة ١٩٥٢ .

وقد أُخْـرِج فيلم واقتُبست مسرحية من كتاب صمت البحر . كما لاقى هذا الكتاب تقديرا ورواجاً عظيمين ، إذ بلغ ما وزع منه رقما قياسيا يكاد يصل إلى نصف مليون نسخة (٤٢٠ ألف نسخة) .



سبق قدومه عرض عسكرى كامل .

فقد حضر أول ما حضر جنديان أشقران ، أحدهما نحيف متخاذل الخطوات ، والآخر رَبْعَة له يدا عامل من عمال المحاجر ، وطافا حول المنزل دون أن يدخلا .

جاء - بعد ذلك - ضابط صف ، وكان يصحبه الجندى المتخاذل المشية ، كلمانى بما ظننته لغة فرنسية ، ورغم أنى لم أفهم شيئا فإنى قدتهما إلى الغرف الخالية بالمنزل ، فظهر عليهما الرضا .

وفى اليوم التالى دخلت إلى الحديقة عربة عسكرية مكشوفة ، ضخمة رمادية اللون . وأخرج منها السائق

وجندى نحيل أَشقر باسم ، صندوقين وربطة كبيرة داخل قطعة سميكة من القماش الرمادى . وأدخلا كل هذا إلى أَوسع غرفة فى المنزل . وبعد ثلاث ساعات من رحيل العربة العسكرية ، سمعت صوت أقدام خيل . وظهر ثلاثة فرسان . ترجل أحدهم ودخل يتفقد البناء الحجرى القديم . ورجع ليدخل معه الجميع ، رجالا وخيولا ، إلى « الجاراج » الذى كنت أستعمله ورشة صغيرة للنجارة .

ولاحظت بعد ذلك أنهم أدخلوا قضيبا حديديا من أَدواتى الخاصة بالنجارة فى ثقب بالحائط ، بين حجرين ، وربطوا حبلا بهذا القضيب ليوثقوا إليه الخيل .

ولم يحدث جديد خلال يومين ، ولم أر بعد ذلك أَحدا . فقد كان هؤلاء الفرسان يخرجون مع خيولهم

فى ساعة مبكرة ليرجعوا بالليل . وكانوا ينامون هم أيضا على القش الذى ملأوا به أرض الحجرة .

ولكن العربة المصفحة رجعت فى صباح اليوم الثالث . وحمل الشاب الباسم منها ، على كتفه ، حقيبة قماشية ضخمة من حقائب الجنود ، وأدخلها إلى الغرفة . ثم أخذ بعد ذلك حقيبة سفره ووضعها فى الحجرة المجاورة ، ونزل ليطلب من بنت أخى - فى فرنسية سليمة - أغطية للفراش .

كانت بنت أخى هى التى ذهبت لتفتح للطارق ، بعد أن أحضرت لى القهوة كعادتها كل مساء ، فالقهوة تساعدنى على النوم . وكنت جالسا فى نهاية الغرفة فى مكان مظلم نسبيا . وكان باب الحجرة يؤدى مباشرة إلى الحديقة . ويحيط بالمنزل كله طوار من المربعات الحمراء ، يلجأ إليه القادم حين تمطر السماء .

سمعنا وقع أقدام على بلاط الرصيف ، فنظرت بنت أخى إلى ووضعت قدحها . أما أنا فاحتفظت بقدحى فى يدى .

وكان الليل قد أظلم ، ولكن الجو لم يكن شديد البرودة ، رغم أننا كنا فى شهر نوفمبر . ورأيت الخيال الضخم القادم ، و « الكاسكت » المنخفضة ،

ومعطف المطر الملقى على الكتفين كأنه عباءة .



وكانت بنت أخي قد فتحت الباب وظلت صامتة ، ثم دفعته صوب الحائط واستندت عليه ، دون أن تنظر إلى شيء . أما أنا فكنت أشرب قهوتي على جرعات صغيرة .

وقال الضابط وهو عند الباب : « أرجو المعذرة » .

وأومأ برأسه فى تحية خفيفة ، وكأنه يزن الصمت . ثم دخل .

وانحسر المعطف من فوق ذراعه وهو يحيى بالتحية العسكرية . ثم رفع قبعته واتجه إلى بنت أخى مبتسما فى حياء ، وهو يحنى قامته انحناءة خفيفة ، ثم أدار وجهه ناحيتى وانحنى لى انحناءة أكثر رسمية واحتراما وقال : « اسمى ورنر فون ابريناك » . ووجدت الوقت لكى أفكر سريعا : « إنه ليس اسما ألمانيا . لعله أحد أحفاد مهاجر بروتستانتى ؟ » . وأضاف الضابط : « إننى شديد الأسف » .

وسقطت آخر كلمة بنطقها الممدود فى الصمت . كانت بنت أخى قد أقفلت الباب وبقيت معتمدة على الحائط تنظر أمامها مباشرة . وكنت لا أزال جالسا ، فوضعت قدحى بهدوء على « الأرغن » وعقدت

ذراعيَّ مترقبا .

فعاد الضابط يقول : « من الطبيعي أَن ما حدث كان ضروريا . كنت أتمنى أَن أتفادى كل هذا ، لو كان ذلك ممكنا . ولكنني أَعتقد أَن تابعي سيعمل ما في وسعه لراحتكم » .

وكان واقفا في وسط الحجرة ، شديد الطول ، شديد النحافة ، حتى أنه كان يستطيع أَن يلمس السقف لو رفع ذراعه إلى أَعلى .

وكان رأسه مائلا قليلا إلى الأمام كأن مكانه ليس بين الكتفين تماما . لم يكن أَحدب ولكن مظهره كان يوحي للناظر بذلك ، إلى حد ما . أَما جسمه فنحيل يتسق وكتفيه الضيقتين ، والوجه مليء بالرجولة ، جميل ، يميزه انخفاضان على طول الخدين . ولم يكن من المستطاع رؤية عينيه اللتين كان يحجبهما الظل النازل

من سقف القبو، وإن لم يحجب ذلك عن عينىّ صفاءهما. أَما الشعر فأَشقر ناعم مرجل إلى الخلف، يلمع كالحرير الهفهاف تحت نور الكهرباء.

وامتـــد الصمت، وازدادت كثافته شيئا فشيئا كضباب الصباح. صمت كثيف وجامد. فجمود بنت أخى — وجمودى أَنا بغير شك — أَثقلا كثيرا من هذا الصمت حتى أَصبح كالرصاص. حتى أَن الضابط نفسه تملكته الحيرة فوقف جامدا، إلى أن رأيت أخيراً شبح ابتسامة تتولد على شفتيه. وكانت ابتسامته مريرة ليس فيها أقل أثر للسخرية. وحاول أَن يحرك يديه بإشارة لم أَفهم مغزاها. وانتقلت عيناه إلى بنت أخى التى كانت لا تزال معتدلة متصلبة. واستطعت أَن أَتأمل جيـــدا المنظر الجانبى لوجهه القوى المعبّر، وأنفه المعتدل الدقيق. ورأيت سنًّا ذهبية تلمع بين

شفتيه نصف المطبقتين ، وأخيرا حول عينيه ونظر إلى النار فى المدفأة ، وقال : « إننى أشعر بإعجاب كبير نحو الأشخاص الذين يحبون وطنهم » . ثم رفع رأسه فجأة وحدق فى صورة الملاك المنحوتة أعلى النافذة ، وقال : « أستطيع الآن أن أصعد إلى غرفتى ، ولكننى لا أعرف الطريق » . ففتحت بنت أخى الباب الذى يؤدى إلى السلم الصغير ، وبدأت ترتقى درجاته دون أن تلقى أية نظرة إلى الضابط ، كما لو كانت تصعد بمفردها . وتبعها الضابط . عندئذ تبينت أن إحدى ساقيه كانت متصلبة قليلا .

وسمعتهما يعبران الردهة العلوية . كانت خطوات الألمانى تدوى فى الممر العلوى ، على التوالى ، خطوة قوية تتبعها خطوة ضعيفة . ثم فتح باب وأقفل ثانية . ورجعت بنت أخى ، وأخذت فنجانها واستمرت فى

شرب قهوتها . أما أنا فأشعلت غليونى . . وهكذا
صامتين بضع دقائق ، قلت بعدها : « الحمد لله ، إنه مقبول
فيما يظهر » . فهزت بنت أخى كتفيها وسحبت معطفى
الذى تتدثر به على ركبتيها ، وانهمكت فى إنهاء قطعة ،
لا تكاد ترى من الملابس ، كانت قد بدأت فى
إصلاحها .

في صباح اليوم التالى نزل الضابط ونحن نتناول إفطارنا فى المطبخ . وكان هناك سلم آخر للنزول ولكننى لا أعرف إذا كان قد أحس بوجودنا فى المطبخ أم نزل من هذا السلم مصادفة . وتوقف على عتبة المطبخ ، وقال : « لقد قضيت ليلة هادئة جدا ، أرجو أن تكون ليلتكم أيضا كذلك » . وكان ينظر إلى الحجرة الواسعة مبتسما . ولما لم يكن لدينا غير قليل من الخشب ، وكمية أقل من الفحم ، فإنى كنت قد أعدت طلاء المطبخ ، وأحضرنا إليه قليلاً من الأثاث والأدوات النحاسية والأطباق القديمة ، لكى نرتب فيه حياتنا طوال الشتاء .

تجول الضابط بناظريه فى كل هــذا وأطراف أسنانه الشديدة البياض تلمع أمام أعيننا . ولاحظت

عندئذ أن عينيه ليستا زرقاوين كما اعتقدت وإنما عسليتان بلون الذهب . وأخيراً عبر الغرفة وفتح الباب المؤدى إلى الحديقة .

ومشى خطوتين ثم استدار لينظر إلى منزلنا المستطيل المنخفض ، المغطى بسقف من القرميد البنى الداكن ، فاتسعت ابتسامته حتى ملأت وجهه بالبشر ، وقال وهو يشير بظهر يده إلى بناء متعال . يظهر من بين الأشجار العارية ، بعيدا قليلا على الهضبة : « لقد قال لى عمدتكم العجوز إنى أستطيع أن أسكن فى ذلك القصر . ولكننى مغتبط لخطأ رجالى ، فهنا قصر أجمل من الآخر بكثير » .

ثم أقفل الباب وحيانا من خلال زجاج النافذة وذهب .

وعاد فى المساء فى ذات ميعاد الليلة السابقة ، وكنا نشرب قهوتنا . وطرق الباب ، ولكنه لم ينتظر حتى

تفتح له بنت أختى . وإنما فتح الباب بنفسه وقال : « أخشى أن يكون مرورى من هنا يضايقكم . إذا أردتم أستطيع أن أمر عن طريق المطبخ ، وهكذا تستطيعون أن تقفلوا هذا الباب بالمفتاح » . وعبر الغرفة ، وظل فترة ويده على مقبض الباب ينظر فى جميع أركان ردهة التدخين . وأخيراً انحنى انحناءة خفيفة وقال : « أرجو لكم ليلة هنيئة » . وخرج .

✡ ✡ ✡

ولكننا لم نقفل الباب أبدا بالمفتاح . ولست متأكدا مما إذا كانت أسباب هذا الامتناع واضحة كل الوضوح ، أو ناتجة عن سبب معين مفهوم . فبمقتضى اتفاق ضمنى قررنا ، بنت أختى وأنا ، عدم تغيير أى شىء فى حياتنا ، مهما كان تافها أو بسيطا : كأن الضابط غير موجود بيننا على الإطلاق ، كأنه مجرد شبح . ولكنه من المحتمل أن شعوراً آخر خالط هذه

الرغبة فى قلبى ، فإنى لا أستطيع — دون أن أتألم — أن أجرح إنسانا ، حتى ولو كان هـــذا الإنسان عدوى .

وظل هذا المنظر يتكرر كل يوم خلال مدة طويلة أكثر من شهر ، يطرق الضابط الباب ويدخل ، ثم يتمتم ببضع كلمات عن الجو ، أو درجة الحرارة ، أو أى موضوع آخر له نفس هذه الأهمية الضئيلة ، ولكن الرابط الوحيد بين كل هذه الموضوعات هو أنها لم تكن تتطلب ردا بطبيعتها . وكان — دائما — يتمهل على الباب الصغير وينظر حوله ، وبسمة خفيفة تترجم - دائما - عن اغتباطه بما يراه . وكانت عيناه تتمهلان - بدورهما - على المنظر الجانبي لوجه بنت أخى ، المطرق - دائما - بنفس القسوة وانعدام التعبير . وعندما كان يحول نظراته ؛ كنت متأكدا - دائما - أنى

أستطيع أن أقرأ فيها نوعاً من بسمة الرضا والموافقة .

ثم يقول وهو ينحنى : « أرجو لكم ليلة هنيئة » .

ويخرج .

ولكن الأمور تغيرت فجأة ذات ليلة . كانت السماء تساقط فى الخارج ثلجا رقيقا مختلطا بالمطر ، فظيعا فى برودته ورطوبته . وكنت أشعل فى الموقد قطعا كبيرة من الخشب أحرص عليها لمثل هــــذه الأيام . ورغما منى تصورت الضابط الألمانى ، فى الخارج ، ومنظره وهو يدخـــل وقد اكتسى برذاذ الثلج الأبيض . ولكنه لم يحضر . ومضى وقت طويل على موعد رجوعه المعتاد ، وأنا حانق لإدراكى أنه يحتل تفكيرى . أما بنت أخى فكانت منهمكة فى شغل الإبرة باهتمام شديد .

وأخيراً سمعنا وقع أقدام . ولكن الصوت كان آتيا من داخل المنزل . وعرفت فى الوقع غير المنتظم

مشية الضابط . ففهمت أنه دخل من الباب الآخر وأنه قادم من حجرته . ولا شك أنه لم يرد أن يظهر أَمامنا مبلل الزى ، زرىَّ المظهر ، فذهب أولا ليغير ملابسه .

وسمعنا وقع أقدامه يهبط السلم ، خطوة قوية وخطوة ضعيفة . وانفتح البـــاب وظهر الضابط . وكان مرتديا الزى المدنى: « بنطلون » من الفانلة الرمادية السميكة وسترة من التويد الأزرق القاتم تتخلله خيوط بنية صارخة . وكانت سترته تنسدل على جسمه فى بساطة أنيقة ، وتحتها صدار عالى الرقبة من الصوف السميك يلف وسطه القوى رغم نحافته .

وقال : « أرجو المعذرة . إننى لا أشعر كثيراً بالدفء ، فقد كنت مبتلا للغاية وحجرتى باردة جدا فجئت أتدفأ قليلا بناركم » . وجلس القرفصـــاء بصعوبة

أمام الموقد ومد يديه . وأدارهما أمام النار مرة وثانية، وجعل يردد : «حسنا ، حسنا». واستدار وأعطى ظهره للهب، وهو لا يزال جالسا القرفصاء وممسكًا إحدى ركبتيه بذراعيه .

ثم قال : «إن الأمر هين هنا ، فالشتاء فى فرنسا فصـــل لطيف . أما فى بلادى فهو قاس جدا جدا. لا يصمد هناك فى غاباتنا الكثيفة أمام الجليد الزاحف الكثيف سوى أشجار الصنوبر التى تحمل أكداسه البيضاء طوال فصل الشتاء . أما هنا فالأشجار تحتفظ برونقها ورقتها ولا يفترق الثلج فوقها عن وشاح من «الدانتلا» الرقيقة الموشاة. فى بلادى تقاوم الطبيعة الجبارة كأنها ثور ضخم فى حاجة لقوته كى يناضل ويعيش . أما هنا فالروح والفكرة اللماحة الشاعرية هى انعكاس طبيعتكم ومناظركم الهادئة الرقيقة الحالمة» .

وكان صوته مكتوما لا لون ولا مميز له ، ونبراته ضعيفة لا تشتد إلا عند بعض الحروف الساكنة ، وتشبه في مجموعها نوعا من الطنين المنغم . ثم نهض واتكأ بمقدم ذراعيه إلى أعلى المدفأة ، ووضع جبهته على ظهر يده . وكان طويلا لدرجة أنه اضطر أن ينحني قليلا . في حين أن رأسي أنا لا يكاد يصل إلى مستوى سقف هذه المدفأة العالية .

وظل في مكانه وقتا طويلا دون أن يتحرك أو يتكلم . وبنت أخي منهمكة في « التريكو » في شبه حمى ميكانيكية . لم تلق بنظرها إليه مرة واحدة ، أما أنا فكنت أدخن شبه مستلق على مقعدي الكبير المريح . وخيل إلي أن شيئا لن يستطيع أن يحرك ثقل الصمت المخيم حولنا ، وأن الرجل سوف يحيينا وينصرف .

ولكن الطنين المنغم المكتوم ارتفع من جديد . ولا أستطيع أن أقول إن صوته قطع الصمت ، فقد خيل لى أن صوته ولد وارتفع من بحر هذا الصمت الثقيل المخيم حولنا :

« كنت دائما أحب بلادكم » ، قالها الضابط دون أن يتحرك ، وعاد يكرر : « دائما . . . إبان الحرب الأولى كنت طفلا ، ولا أهمية لما كنت أعتقده وقتئذ ، إلا أنى منذ ذلك الوقت وأنا أحبها دائما . ولكنه كان حبا من بعيد . كما نحب أميرة الأحلام النائية » .

وتوقف فترة قبل أن يقول فى شىء من الحزن : « كان ذلك بسبب والدى » . واستدار نحونا وقد وضع يديه فى جيبى سترته ، واستند بهما على ساقيه ، فأصبح رأسه يلامس أعلى الأرفف تقريبا ، وكان هناك

مقعـــد مُهَيَّأً للجلوس بجواره ولـكنه لم يفـكر فى الجلوس عليه ، وحتى آخر يوم قضاه فى منزلنا لم يحدث أن جلس معنا . فنحن لم نعرض عليه ذلك أَبدا ، وهو بدوره لم يحاول على الإِطلاق أن يأتى ما يمكن أن يؤخذ مأخذ الألفة .

وجعل يردد :

« كان ذلك بسبب أبى . لقد كان وطنيا كبيرا ، وكانت الهزيمة محنة قاسية عليه ، ولـكنه كان يحب بلادكم رغم ذلك ، أَحب بريان[1] وكان يؤمن به ويؤمن بجمهورية فيمار . كان متحمسا جدا ، وكان

---

(١) هو أرستيد بريان Aristide Briand وكان رئيســا للوزارة الفرنسية وقتئذ ، وجمهورية فيمار Weimar هى النظام الجمهورى الذى أعطى لألمانيا بمقتضى دستور ١٩١٩ وقد اتفق عليه فى مدينة فيمار بألمانيا فسمى لذلك باسمها .

يقول إنه سوف يربطنا ببعض كزوج وزوجته ، وكان يعتقد أن الشمس سوف تشرق أخيرا على أوربا الموحدة » .

وكان الضابط ينظر إلى بنت أخى وهو يتكلم . لم تكن نظرته إليها نظرة رجل إلى امرأة ، وإنما نظرة أشبه ما تكون بتأمل شارد فى تمثال حجرى . والواقع أنها كانت تمثالا بحق ، تمثالا حيا جامد التقاطيع صارم القسمات . وعاد يقول :

« ولكن بريان غلب على أمره . وعرف والدى أن بلادكم كان لا يزال يقودها أرستقراطيوكم القساة ... أشخاص من أمثال دى فيندل وهنرى بوردو ومارشالكم العجوز[1] ، فقال لى عندئذ : « يجب عليك

(١) يقصد المارشال بيتان الذى حكم فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية بحكومة موالية للألمان المحتلين .

ألا تذهب إلى فرنسا قبل أن تستطيع أن تدخلها وعلى رأسك خوذة الجندى وفى قدميك حذاؤه الثقيل».
واضطررت أن أعاهده على ذلك ، فقد كان مشرفا على الموت .

«وعندما اندلعت نيران هذه الحرب كنت قد شاهدت كل أوربا ما عدا فرنسا» . وابتسم وقال كأنه يشرح سبب كل هذا التجوال : « إننى أشتغل بالموسيقى ....»

وتهاوت قطعة من الخشب فى الموقد وتطايرت خارجه قطع من الجمر ، فانحنى الألمانى وجمع قطع الجمر بملقاط صغير . واستطرد يقول :

« لست عازفا ولكننى أؤلف الموسيقى . إن الموسيقى هى كل حياتى ، لذلك فإنه لمنظر غريب حقا أن أرى نفسى هنا رجل حرب ، ولكننى لا آسف

لهذه الحرب . . . . لا . . . . إننى أعتقد أنها سوف تسفر عن نتائج عظيمة لبلدينا معا . . . »

واعتدل فى وقفته ، وأخرج يديه من جيبيه ، ورفعهما أمامه قائلا :

« أرجو المعذرة ! ربما أكون قد آلمت شعوركم . ولكن ما أقوله هو ما أومن به بكل إخلاص . أومن به حبا لبلدكم . فهناك آفاق عظيمة تنتظر بلدينا معا . إننى اومن كما كان أبى يؤمن أن الشمس سوف تشرق فوق أوربا الموحدة » .

. . . . وخطا خطوتين ثم انحنى . وككل مساء قال: « أرجو لكم ليلة هنيئة » . ثم خرج .

وأنهيت تدخين غليونى فى صمت . وسعلت قليلا لأقول : « قد يكون من غير الإنسانى أن نبخل عليه ولو بكلمة واحدة » . فإذا ببنت أخى تدير وجهها إلى

وقد رفعت حاجبيها عاليا وهى تسدد إلى نظرة غاضبة ملؤها الدهشة والاستنكار ، حتى كدت أحس على وجهى احمرار الخجل .

وبعد ذلك أصبحت هذه هى طريقة زياراته لنا . لم نعد نراه إلا نادرا فى زيه الرسمى ، فقد كان يغير ملابسه أولا ، ثم يطرق بعد ذلك باب غرفتنا . هل كان يقصد بهذا أن يجنبنا مشقة رؤية زى الأعداء العسكرى ؟ أم كان يقصد أن ينسينا هذا الحاجز الذى يقف كالسد الهائل بيننا وبينه ؟ لعله كان يقصد الاثنين معا .

كان يطرق الباب ويدخل دون أن ينتظر جوابا كان يعرف أننا لن نجود به أبدا . وكان يفعل ذلك بكل بساطة وبراءة ، متذرعا بحجة الدفء على نارنا ، ولكن هذه الحجة الدائمة لمجيئه لم تكن لتخدعه أو تخدعنا . بل إنه لم يكن يوما يحاول أن يخفى طبيعتها

الشكلية المحضـــة .

لم يكن يأتى كل مساء ، ولـكننى لا أذكر ليلة واحدة جاء فيها وتركنا دون أن يتكلم ، فبينما هو منحن على النار ، يعرض جسمه لحرارة اللهب، كـان صوته الرتيب يرتفع فى بطء طوال السهرة ، حول الموضوعات التى تعمر قلبه : بلاده والموسيقى وفرنسا . محاضرة لا تنتهى من جانب واحد . لم يحاول مرة أن يحصل منا على رد أو موافقة أو حتى مجرد نظرة . ولم يكن يتكلم طويلا ، فلم يحدث أن تـكلم أطول من حديثه أول ليلة رأيناه فيها . كـان يلقى ببضع عبارات، تقطعها أحيانا فترات من الصمت ، وتمتد فى أحيان أخرى امتداد الصلاة الطويلة الرتيبة .

كل ذلك وهو متكىء — فى جمود التمثال — على المدفأة ، أو مقترب ـ دون أن يقطع حديثه ـ يتفحص شيئا فى الحجرة أو رسما على الحائط .

قال مرة ، وكان ذلك فى إحدى زياراته الأولى :

«أى فرق بين نار كهذه والنار فى منزلى ؟ حقا إن الخشب واللهب والمدفأة كلها متشابهة ، ولكن ضوء النارين مختلف ، فالضوء هو انعكاس الأشياء التى ينيرها ساكنو هذه الغرفة والأثاث والجدران والكتب فى أرففها ...

« لماذا أحب هذه الحجرة كل هذا الحب؟» — قالها متسائلا — « اسمحوا لى أن أقول إنها ليست حجرة فى متحف مثلا ... فهذا الأثاث ليس فى ذاته قطعا فنية نادرة ... لا ... ولكن هذه الغرفة لها روح ... كل هذا المنزل له شخصية وله روح ...»

وكان واقفا أمام أرفف المكتبة ، وأصابعه تنتقل

على أغلفة الكتب فى حركة حالمة :

« بلزاك ، بارس ، بودلير ، بومارشيه ، بوالو ، بيفون . . . ، شاتوبريان ، كورنى ، ديكارت ، فينيلون ، فلوبير ... ، لافونتين ، فرانس ، جوتييه ، هيجو . . . ، ياله من موكب حافل » .

قالها وهو يطلق ضحكة خفيفة ويهز رأسه :

« كل هذا وأنا فى أول الترتيب الأبجدى لم أتعد حرف « H » ، لم أصل بعد إلى موليير ، أو رابليه ، أو راسين ، أو بسكال ، لا ستاندال ولا فولتير ولا مونتينى ولا كل الآخرين » ...

وظل يتنقل ببطء أمام الكتب وهو يطلق بين الفينة والفينة صيحات خافتة تنم عن الدهشة ، عندما يقرأ ـ فيما أعتقد ـ اسما لم يكن يدور بخاطره . واستطرد :

« إننا إذا تكلمنا عن الإنجليز ذكرنا على التو :

شيكسبير . والإيطاليين : دانتي .وأسبانيا : سرفانتس. أما نحن فعلى الفور : جيته ، وبعد ذلك يجب أن نبحث لنجد اسما آخر . ولكننا إذا قلنا : وفرنسا ؟ عندئذ من يبرز على الفور؟ موليير ، راسين ، هيجو ، فولتير ، رابليه ، أو أى عبقرى آخر ؟ إنهم يتدافعون كلهم فى لحظة واحدة ، كالجماهير عند مدخل المسرح ، لاتستطيع أن تعرف من منهم يجب أن يدخل أولا ».

واستدار ليقول فى صراحة :

« ولكننا إذا اتجهنا إلى الموسيقى ، فإنها فى بلدى : باخ ، هيندل ، بيتهوفن ، فاجنر ، موزار .. أى اسم منهم يأتى أول القائمة ؟

« ومع كل هذا فقد حاربنا بعضنا البعض ». قالها ببطء وهو يهز رأسه أسفاً .

وعاد إلى المدفأة واستقرت عيناه الباسمتان على

المنظر الجانبي لوجه بنت أخي وقال :

« ولكن هذه الحرب ستكون الأخيرة . لن نتقاتل بعد الآن . سوف يتزوج بلدانا ! » .

وانسدل جفناه ، وانداحت غمازتان طويلتان فى منخفض خديه ، وظهرت أسنانه بيضاء لامعة ، وقال بمرح : « نعم ، نعم ! » ، وأكد ذلك بهزة خفيفة من رأسه .

واستطرد بعد فترة من الصمت : « عندما دخلنا إلى « سانت » ، كنت سعيدا لأن أهل هذا البلد استقبلونا استقبالا حسنا . كنت سعيداً جدا . وفكرت أن الأمر سيكون سهلا . ثم تبينت بعدئذ أن الأمر لم يكن كذلك إطلاقا ، وأن الدافع على هذا الاستقبال لم يكن سوى الجبن .. » . وكانت لهجته وتعبير وجهه قد اكتسبا مرارة وصرامة : « لقد احتقرت هؤلاء الناس ، وخشيت

على بلدكم . وَفكرت : هل انحدرت حقا إلى هـذا المستوى ؟» وهز رأسه نفيا : « لا ! لا ! لقد رأيتها على حقيقتها بعد ذلك ، وإننى لسعيد بوجهها الصارم » .

وحول نظره فى نظرى ، فأدرته سريعا . عندئذ تمهل ببصره قليلا على أماكن مختلفة من الغرفة ، ثم استدار إلىّ ليواجه الجمود القاسى يملأ الوجه الذى كان قد تحول عنه . وقال :

« إننى سعيد لأننى وجدت هنا شيخا وقورا وآنسة صموتا ، ولكننى يجب أن أقهر هذا الصمت ، يجب أن أقهر صمت فرنسا ، فإن هذا يروقنى » .

ونظر إلى بنت أخى ، إلى المنظر الجانبى لوجهها النقى العنيد المقفل ، وجعل يرمقها فى صمت وتصميم مشوب بالحزن ، وَإن ظللت وجهه بقايا ابتسامة شاحبة . وشعرت بنت أخى بنظرته ، ورأيت وجهها يحمر قليلا وهى تقطب

ما بين حاجبيها فى بطء ، وَتشد على الإبرة فى شدة وجفاف كادا أن يقطعا الخيط بين يديها .

وعاد الصوت الخفيض يقول :

« نعم ، إن الأمر أفضل هكذا ، أفضل بكثير ... فهكذا تتكون الصلات المتينة ، صلات يكتسب فيها الطرفان قوة وضخامة ...

« هنـــاك أقصوصة جميلة للأطفال ، قرأتها أنا ، وقرأتموها أنتم ، وقرأتها الدنيا بأسرها . لا أعلم إذا كان اسمها هو نفس الاسم فى بلدينا . إنها عندنا تسمى : الجميلة والوحش .

« مسكينة هذه الجميلة ! إن الوحش يضعها تحت رحمته ، ويفرض عليها — وهى الأسيرة الضعيفة — فى كل ساعة من ساعات اليوم ، وجوده الثقيـــل الذى لا ينتهى ...

« الجميلة الرصينة المتعالية تعمد إلى الجفوة والقسوة ، ولكن مخبر « الوحش » أحسن من مظهره . إن وجهه ليس شديد القبح ! حقا إنه عنيف غير مهذب ، يبدو كالجلف الخشن بجانب الجميلة الرقيقة ! ... ولكنه ذو قلب يحس وروح تتطلع إلى الارتفاع والتسامى ...

« كل هذا لو أرادت الجميلة ! والجميلة تحتاج لكثير من الوقت حتى تريد ... وتفصح عما تريد ...

« ولكنها شيئا فشيئا ، تكتشف فى أغوارعينى هذا السجان المكروه بصيصا من النور ، شعاعا يمكن أن يستشف منه الدعاء والحب ، فيخف ثقل الكابوس الجاثم على صدرها ، والأغلال التى تقيد قدميها .. لقد مس جوهره قلبها ، فإذا بها تكف عن البغض ، وتمد له يديها ...

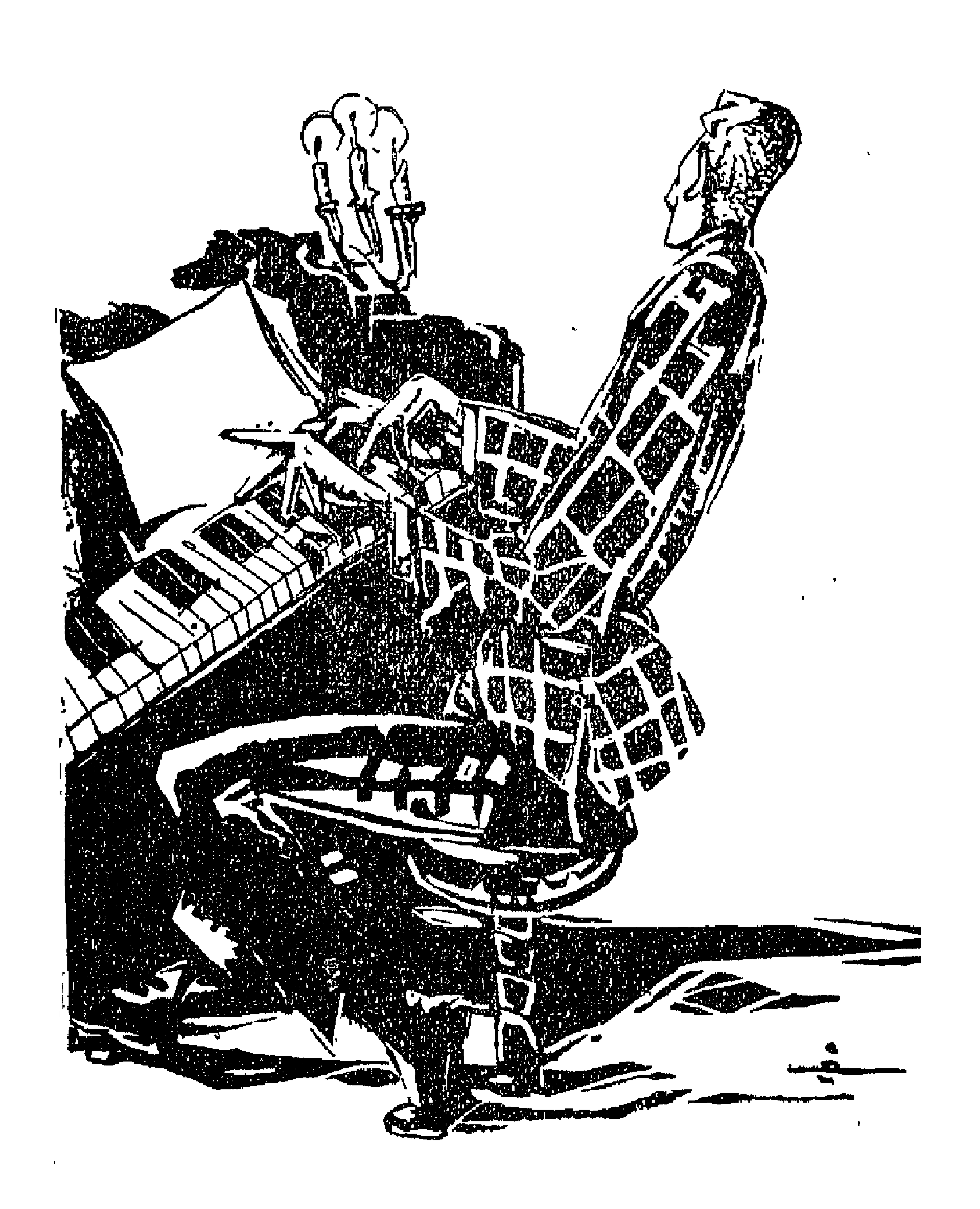
« وإذا القيد الذى كان يربط الوحش بهذه الحيوانية

البربرية يتحطم فجأة ، ويتحول الوحش إلى فارس جميل أنيق ، رقيق مثقف ، تزينه كل قبلة من الجميلة بسجايا جديدة تزداد مع الزمن جمالا وإشعاعا . . . لقد خلق الحب حولهما سعادة علوية . . . أما أطفالهما ، الذين ورثوا هبات أبويهما مضاعفة ، فهم أجمل أطفال على الأرض ...

« ألا تحبون معى هذه القصة ؟ لقد أحببتها أنا دائما ، وكنت لا أنى أقرؤها فتدفع الدموع إلى مآقىّ . كنت أحب « الوحش » على الأخص ، لأننى أفهم آلامه . حتى الآن لا أكاد أمسك نفسى عن التأثر حين أتكلم عنها .. »

وصمت . . . . ثم تنفس فى قوة ، وانحنى ليقول :

« أرجو لكم ليلة سعيدة » .



وذات ليلة كنت قد صعدت إلى غرفتى لأبحث عن قليل من التبغ ، فسمعت صوت المعزف . كان يعلو بأنغام مقطوعة بريليد وفيج الثامنة التى كانت تتمرن عليها بنت أخى قبل الهزيمة . وكانت كراسة النوتة الموسيقية قد بقيت مفتوحة على هذه الصفحة ، ولكن بنت أخى لم تكن — حتى تلك الليلة — قد قررت معاودة مرانتها .

وقد سرنى وأدهشنى أن تكون قد عاودت العزف ، وتساءلت : أى ضرورة خفية قد دفعتها فجأة إلى هذا ؟

ولكن العازف لم يكن بنت أخى كما ظننت ، فهى لم تكن قد فارقت مكانها ، ولا تركت عملها المعتاد . والتقت

نظرتها بعيني لتبعث إليهما برسالة لم أُدرك معناها . وجعلت أنظر إلى الهيكل الفارغ أمام الآلة ، الرقبة الممدودة، واليدين الطويلتين الرقيقتين في عصبية وتوتر ، والأصابع التي كانت تنتقل على المعزف وكأن لكل منها شخصيته المستقلة .

وعزف المقدمة « البريليد » فقط ، ثم نهض ليلحق بالمدفأة وقال :

« ليس هناك أعظم من هذه الموسيقى » .

قالها بصوته المكتوم الذي لم يكد يتجاوز حد الهمس :

« عظيم ؟ ... لعل هذه الصفة لا تكفي ، هذه الموسيقى أكبر من المرء وأعلى من حدود لحمه ودمه ، إنها تساعدنا على فهم طبيعة النفس البشرية واكتناه

أسرارها. . . . هذه الطبيعة المقدسة المجهولة ... المخلوعة عن عرشها . . . .

« نعم إنها موسيقى فوق قدرة البشر وفهمهم ... »

وبدا — فى صمته المفكر — وكأنه يستكشف مجاهل تفكيره ، وجعل يعض ببطء على شفتيه :

« باخ .... لم يكن يستطيع إلا أن يكون ألمانيا . فإن أرضنا تتميز بهذا الطابع ، الطابع غير الإنسانى ، أقصد . . الخارق ، الخارج عن قدرة البشر » .

وأعقبت ذلك فترة صمت قال بعدها :

« هذه الموسيقى ، إنى أحبها ، بل وأعبدها ... إنها تملأ شعورى ، إنها فى كيانى مثل وجود الله . ولكن .. ولكنها ليست موسيقاى .

« أريد أن أؤلف ، أنا ، موسيقى على قدر فهم البشر

ومستواهم ، فإن هذا بدوره طريق لفهم الحقيقة . إنه طريق . . فأنا لا أريد ولا أستطيع تقليد شخص آخر . إننى الآن موقن من هذا ، موقن تماما . . منذ أن عشت هنا » .

وأدار لنا ظهره ، واستند بيديه على حائط المدفأة ممسكا به بأصابعه ومعرضا وجهه للنار من بين ذراعيه ، مثلما يطل الإنسان من بين قضبان بوابة حديدية . وازداد صوته خفوتا وإبهاما وهو يقول :

« إننى الآن محتاج لبلادكم ، ولكننى أطلب الكثير : إننى أطلب منها أن ترحب بى ، فإنه من السهل أن أعيش هنا كالغريب سائحا كان أم فاتحا ... إنها لا تعطى حينئذ شيئا ، فإن ثراءها هذا الثراء العريض ، لا يمكننا أن نأخذه عنوة واقتدارا ، بل يجب أن نشربه من صدر تقدمه لنا فى لفتة الأمومة وعاطفتها . . . إننى أعلم تماما

أن هذا يتوقف علينا . . . ولكنه يتوقف عليها هى أيضا . يجب أن تقتنع بفهم ظمئنا ... وأن تقبل إرواءه. تقبل أن تتحد معنا » .

واعتدل وهو ما يزال موليا ظهره نحونا ، وأصابعه ممسكة بأحجار المدفأة :

« أما أنا — قالها بصوت أعلى قليلا — فإنى يجب أن أعيش هنا طويلا ، فى منزل مثل هذا المنزل ، ابنا لقرية شبيهة بهذه القرية » ..

وسكت ، واستدار نحونا ، وكانت شفتاه تبتسمان ، وإن لم تبتسم عيناه اللتان كانتا تراقبان بنت أخى ، وقال:

« سوف تتلاشى كل العقبات ، فإن الإيمان يتغلب دائما على العقبات .

« أرجو لكم ليلة سعيدة» .

ولا أستطيع أن أتذكر الآن كل ما قيل خلال أكثر من مائة ليلة من ليالى الشتاء، ولكن موضوع الحديث لم يكن يتغير أبدا . هذه الأنشودة التى لا تنتهى عن اكتشافه لفرنسا ، الحب الذى كان يكنه لها من بعيد، والحب المتزايد فى قلبه — كل يوم — منذ أن سعد برؤيتها والحياة فيها .

وكنت — فى الحقيقة — معجبا به . نعم ، معجبا بأنه لم يتراجع أو يدركه اليأس يوما ، وأنه لم يحاول أبداً أن يهز هذا الصمت المطبق بأى كلمة أو تعبير عنيف.. بل على العكس، فإنه حينما كان يترك ـ أحيانا ـ هذا الصمت يجتاح الغرفة ويشبعها حتى يملأ علينا أركانها كالغاز الثقيل الخانق ، كان يظهر واضحا أنه

أقلنا — نحن الثلاثة — ارتباكا ، وأكثرنا بساطة وثباتا . عندئذ كان ينظر إلى بنت أختى نظرة راضية باسمة رغم مايظللها من انعكاس باهت حزين، تلك النظرة التى ظلت طابعه الملازم منذ أول يوم لقدومه . وكنت أحس روح بنت أختى تتململ خلف قضبان السجن الذى شيدته لنفسها . كنت أحس ذلك واضحا من مظاهر كثيرة أقلها ارتعاش خفيف فى أصابعها .

وحينما كان فرنرفون ابريناك يبدد ، أخيرا ، هذا الصمت فى بساطة وهدوء ، بصوته النقى المنغم ، كان يخيل إلى أنه يعيد مع صوته أنسام الحياة إلى الغرفة ، ويساعدنى على التقاط أنفاسى المحتبسة .

كان يتكلم فى الغالب عن نفسه :

« إن منزلى فى الغابة ، ولدت فيه ، وذهبت إلى مدرسة القرية المتاخمة ، ولم أبتعد عن هناك إلا حين

ذهبت إلى ميونيخ للامتحان ، وسالسبورج لأدرس الموسيقى . ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش هناك . لم أكن أحب المدن الكبيرة .. لقد رأيت لندن وفيينا وروما وفارسوفيا ، والمدن الألمانية بالطبع . إنني لا أستطيع أن أعيش في مثل هذه المدن . ولكنني أحببت « براغ » . ليست هناك مدينة لها مثل روحها . وأحببت على الأخص « نورمبرج » فإنها المدينة الحبيبة إلى قلب كل ألماني . إنه يلاقى هناك الأطياف الحبيبة إلى كل قلب وتطالعه من كل حجر الذكريات الغالية لفرسان ألمانيا القديمة الشجعان .

« أعتقد أن الفرنسيين لا بد أنهم يشعرون بنفس الشيء أمام كاتدرائية شارتر . إنهم لا بد أن يشعروا — هناك أيضا — بوجود أجدادهم الأقدمين ، بلطفهم وسمو روحهم ، وضخامة إيمانهم .

«لقد ساقنى القدر إلى شارتر ... يا إلهى! كم تأثرت عندما ظهرت من وراء حقول القمح الناضجة موشحة بالزرقة الشفافة وكأنها الأثير . . . لقد تخيلت شعور أولئك الذين كانوا يأتون إليها قديما ، على الأقدام ، أو على ظهور الخيل ، أو فوق العربات ... لقد تملكنى نفس الشعور ، وأحببت هؤلاء الناس ، وتمنيت لو كنت أخاهم . . . »

واربد وجهه وأظلم :

« غريب ولا شك أن يسمع مثل هذا الكلام من رجل جاء إلى « شارتر » فى عربة حربية مصفحة ... ولكنها رغم ذلك هى الحقيقة . فإن أشياء كثيرة تتضارب فى نفس كل ألمانى ، هذا التضارب الذى يتمنى لو شفى منه ...».

وعاودته ابتسامته ، ابتسامة خفيفة جدا ، أضاءت

وجهه حثيثا ، ثم قال :

« فى القصر المجاور لمنزلنا فتاة فى غاية الرقة والجمال . وكان أَبى يمنى نفسه دائمـا أن أتزوجها ، وتركنا عند وفاته خطيبين تقريبا . وكان أهلنا يسمحون لنا بالخروج فى نزهات طويلة ، نحن الاثنين وَحدنا » . .

وتريث حتى تدخل بنت أخى الخيط فى ثقب الإبرة ، وكان وقتئذ قد أَفلت منها . ولكن الثقب كان ضيقا مما زاد فى صعوبة المهمة ، فلم توفق إلا بعـــد عدة محاوَلات . . .

وعاد يقول :

« وفى أَحد الأيام كنا فى الغابة ، تفر وتتواثب أَمامنا الأرانب البرية والسناجيب ، وتتفتح حولنا كل أَنواع الزهور : النسرين والسوسن والزنبق . كانت الفتاة تتصايح من البهجة وتقول : « آه . . . إننى

سعيدة يافرنر . إننى أحب. أحب وجه الله فى هذه الكائنات الجميلة !». وكنت سعيداً أنا أيضا.. وتمددنا على الخضرة وسط الأشجار . لم نكن نتكلم وإنما كنا نتطلع فوقنا لنرى قمم أشجار الصنوبر فى تمايلها ، والطيور تنتقل من غصن إلى غصن . وفجأة أرسلت الفتاة صرخة صغيرة : «آه ... لقد لدغتنى فى ذقنى . يالها من بعوضة لئيمة» . ثم رأيتها تحرك يدها بسرعة ، ثم قالت : «لقد أمسكت واحدة . انظر يافرنر، إننى سأعاقبها ، سأخلع ساقيها واحدة بعد الأخرى» . وفعلتها !!» .

واستطرد بعد ذلك :

«لحسن الحظ أن كثيرين كانوا يريدون الزواج بها . إننى لم آسف على فقدها ولكننى أصبحت أرهب الفتاة الألمانية إلى الأبد» .

ونظر إلى راحتى يديه مفكرا ، ثم قال :

« إن رجال السياسة عندنا أيضا هكذا . لهـــذا السبب لم أقبل أبدا أن أنضم إليهم ، رغم أن أصدقائى كانوا يكتبون لى لأحضر وأنضم إليهم . لا .. لقد فضلت دائما البقاء فى منزلى . وكنت أعلم أن ذلك لن يساعدنى على ذيوع موسيقاى ولكننى لم أبال ، فالنجاح لا يساوى شيئا بجانب راحة الضمير . حقا إننى أعلم أن لدى أصدقائى ولدى زعيمنا أضخم الأفكار وأنبلها . ولكننى أعلم أيضا أنهم قادرون على انتزاع أرجل البعوض : الواحدة بعد الأخرى ! إن هذا هو ما يصنعه الألمانى حينما يجد نفسه وحيدا .

« وأى وحدة أقسى من تلك التى يعانيها رجل السياسة حين يصبح على القمة زعيمًا ؟

« لحسن الحظ أن زعماءنا ليسوا وحيدين الآن .

إنهم فى فرنسا ، وفرنسا سوف تبرئهم من دائهم الدفين ، وأود أن أقول لكم إنهم يعلمون ذلك ، إنهم يعلمون أن فرنسا ستجعل منهم رجالا عظماء .. أتقياء ....»

وتوجه ناحية الباب وهو يقول بصوت محبوس كأنه يكلم نفسه :

« ولكن هذا كله لا يصنعه إلا الحب » .

وترك الباب مفتوحا فترة من الوقت ، وقد أدار رأسه إلى الخلف ينظر إلى عنق بنت أخى وهى مكبة على إبرتها ... العنق الرقيق الشاحب الذى ترتفع منه خصائل الشعر وكأنها موجات زاخرة من الأبنوس الفاحم . وأضاف فى هدوء بلهجة الواثق المقتنع :

« الحب المتبادل » .

ثم أدار وجهه وأقفل الباب خلفه ، وهو يلقى فى لهجة سريعة بعبارته المألوفة :

« أرجو لكم ليلة سعيدة » .

وعندما عادت أيام الربيع الطويلة كان الضابط ينزل مع آخر أشعة الشمس . كان يرتدى دائما « بنطلونه الفانلة » الرمادى مع سترة صيفية بنية اللون من الصوف الخفيف ، فوق قميص مفتوح الياقة من التيل .

نزل ذات مساء ممسكا بكتاب مقفل على سبابته ، ووجهه يضىء ببسمة تدل على اقتناعه — مقدما — بما سنجده من متعة فيما يحمل إلينا . وقال :

— لقد أحضرت هذا الكتاب من أجلكم . إنها إحدى صفحات « مكبث » . ياإلهى ! أى ضخامة ! »

وفتح الكتاب ليقول :

« إنها النهاية : قوة « مكبث » تهرب من بين أصابعه مع حب أولئك الذين بدأوا يدركون مدى سواد



أَطماعه . والسادة النبلاء ، الذين يدافعون عن شرف اسكتلندا يترقبون سقوطه العاجل القريب . وهذا هو أحدهم يصف الدلائل الفاجعة لاقتراب هذه النهاية ...»

وقرأ ببطء فى تثاقل مؤثر :

« انجيس »

«إنه يحس الآن بجرائمه الخفية ملتصقة بيديه . فى كل لحظة يرميه بسوء النية رجال متحمسون ثائرون . وهؤلاء الذين يقودهم يطيعون الآن عن رهبة لا عن حب. إنه يحس منذ الآن بمركزه يتأرجح حوله ، فضفاضا كرداء عملاق على القزم الذى سرقه » .

ورفع رأسه وضحك . فسألت نفسى منذهلا عما إذا كان يفكر فى زعيمه هو ، ولكنه قال :

« أَليس هذا هو نفس ما ينغص ليالى أَميرالكم ؟ إننى أَرثى حقا لهذا الرجل ، رغم كل الاحتقار الذى

أُكنه له مثلكم . « هؤلاء الذين يقودهم يطيعون الآن عن رهبة لا عن حب » . إن القائد الذى لا يحبه أتباعه هو دون شك دمية بائسة !

« ولكن ... ولكن ... هل كنا نستطيع أن نأمل غير هذا ؟ مَن إذن - غير طامع كئيب مثله - كان يمكن أن يقبل مثل هذا الدور ؟ كان هذا إذن ضرورياً . نعم كان من الضرورى أن يقبل أى شخص أن يبيع وطنه، لأن بلادكم تعتقد — الآن ، وستظل كذلك لمدة طويلة — أنها لا تستطيع أن تسقط بإرادتها بين ذراعينا المفتوحين، دون أن تفقد كرامتها . وكم كان أنكد الوسطاء سبيلا إلى أسعد الروابط ! ومع ذلك فلا الوسيط أقل مدعاة للاحتقار ولا الارتباط أقل يمنا وسعادة» .

وأقفل الكتاب فى صوت عال ، ودفعه فى جيب سترته ، وضرب براحته على الجيب فى حركة آلية ، ثم قال ووجهه يضىء بتعبير ينم على السعادة :

« يجب أن أخبر مضيِّفيَّ أنى سأتغيب أسبوعين. إننى سعيد لاعتزامى الذهاب إلى باريس. إنه الآن موعد إجازتى وهى أول إجازة سأقضيها هناك. إنه ليوم عظيم بالنسبة لى، بل إنه لأعظم يوم فى حياتى، فى انتظار يوم آخر أترقبه بكل ما فى نفسى من لهفة! أستطيع أن أنتظر سنوات إذا كان ذلك ضروريا، فإن قلبى لديه الكثير من الصبر!

« فى باريس، أعتقد أنى سأقابل أصدقائى، الذين يشترك كثير منهم فى المفاوضات التى نجريها مع رجالكم السياسيين لنعد للاتحاد المرتقب بين شعبينا ... وهكذا سأكون — إلى حد ما — شاهد هذا الزفاف... وأود أن أقول لكم إننى سعيد من أجل فرنسا التى ستلتئم جراحها سريعًا، هكذا. ولكننى أكثر سعادة من أجل ألمانيا ومن أجلى أنا أيضا، فإن ألمانيا سوف

تستفيد ، بإرجاعها لفرنسا عظمتها وحريتها ، بما لم يستفده من حسن صنيعه أحد من قبل» .

واختتم حديثه قائلا جملته التقليدية : «أرجو لكم ليلة سعيدة ...».

عطيل

« لنطفىء هذا النور حتى ينطفىء بعده نور الحياة... »

لم نره حين عاد .

ولكننا كنا نعلم يقينا بعودته ، ذلك أن أمارات عديدة لابد أن تنم عن وجود ضيف بالمنزل ولو بقى متخفيا لا يريد الظهور .

وطال احتجابه عدة أيام تزيد على الأسبوع .

هل أستطيع أن أعترف ؟ إن هذا الاحتجاب تركنى فريسة للقلق . كنت أفكر فيه ، ولا أستطيع أن أبين إلى أى حد لم أكن أستشعر الأسف والحيرة .

لم نتكلم فى الأمر : لا بنت أخى ولا أنا . ولكننا حين كنا نسمع فوقنا بالليل — أحيانا — وقع خطواته غير المنتظم ، كنت ألاحظ جيدا ، من الاهتمام العنيد



الذى توليه بنت أخى فجأة لخيطها وإبرتها ، ومن بضعة خطوط خفيفة تعطى وجهها طابع المترقب المشدوه ، أنها هى أيضا لم تكن بعيدة عن الأفكار التى كانت تدور بذهنى .

وفى أحد الأيام كان على أن أذهب إلى قيادة المنطقة لتقديم إقرار خاص بالإطارات ، وبينما أنا أملأ « الأنموذج » الذى أعطونيه هناك ، خرج فرنرفون أبريناك من مكتبه ..

لم يرنى أول الأمر ، فقد كان يتكلم مع جاويش يجلس على طاولة صغيرة أمام مرآة عالية مثبتة بالحائط .

سمعت صوته المألوف ، ورغم أنى كنت قد انتهيت من كتابة الإقرار المطلوب ، فإنى — لسبب لا أستطيع تحديده — بقيت فى مكانى ، مفعم القلب مهتاج الحس

فى انتظار أى مخرج أو نهاية للموقف . ورأيت وجهه فى المرآة وخيل إلى أنه شاحب متوتر ، وارتفعت عيناه لتلتقيا بعينى ، وظللنا نتبادل النظر خلال المرآة بضع لحظات ، وإذا به يدور فجأة على عقبيه ليواجهنى ، وانفرجت شفتاه قليلا ثم رفع يده فى تثاقل وتركها تنزل على الفور إلى جانبه ، وهز رأسه هزة واهنة تكاد تكون غير ملحوظة ، فى حيرة مؤثرة . كل ذلك دون أن يبتعد عنى بنظره ، ثم ثنى جذعه فى شبه انحناءة تاركا نظراته تسقط إلى الأرض ، ورجع وهو يعرج إلى مكتبه حيث أقفله على نفسه .

لم أقل شيئا من هذا لبنت أخى . ولكن للنساء مقدرة على استكناه الأمور تكاد تصل إلى مرتبة الحاسة الغريزية ، فإنها لم تكف طوال السهرة عن رفع نظرها عن الخيط الذى بيدها ، لتنظر إلى وجهى محاولة أن

تقرأ فيه ما يعتمل بداخلى . ولكننى جهدت أن أكون هادئا ، وأنا أشد باهتمام على غليونى .

وأخيرا تركت بنت أخى ذراعيها يسقطان إلى جانبيها فى حركة يائسة متعبة ، ثم استأذنتنى ، وهى تطوى قطعة القماش التى كانت بيدها ، فى أن تذهب إلى الفراش مبكرة ، وجعلت تمر على جبهتها بأصابعها ، وكأنها تطرد آلام صداع يثقل رأسها ، وحين قبلتنى مودعة كدت أقرأ فى عينيها الرماديتين الجميلتين ، اتهاما واكتئابا دفينين .

وبعد صعودها ، شعرت بغضب غريب يملأ نفسى ، غضب من لا يعرف لتصرفه ولا لتصرف من حوله معنى ، فإننى فى الواقع لم أكن أستطيع أن أدرك معنى واضحا لكل هذه الحماقة التى كانت تستغرقنا فى دوامتها . ولكنه حتى على فرض أنها مجرد حماقة ، فإن

جذورها كانت ثابتـــة متشعبة ، وآثارها ظاهرة جلية .

* * *

وبعد ثلاثة أيام ، كنا قد فرغنا للتو من شرب قهوتنا ، حينما سمعنا وقع الأقدام غير المنتظم ــ الذى تعودناه ــ يعلو ويقترب فى وضوح . فتذكرت فجأة تلك الليلة الشاتية ، التى سمعنا فيها لأول مرة — منذ ستة أَشهر ــ وقع هذه الخطوات . ولاحظت أن المطر كان ينهمر ــ أيضا ــ وقتئذ .

كان المطر ينهمر بشدة منذ الصباح . مطر منتظم عنيد ، أغرق حتى داخل المنزل فى جو بارد رطب . وكانت بنت أخى تغطى كتفيها بوشاح من الحرير المطبوع ، مرسومة عليه عشرأيد غريبة من تصميم جان كوكتو ، تشير إلى بعضها البعض فى تخاذل مثير .

أما أنا فكنت أدفىء أصابعي على الحرارة المتصاعدة من غليوني .. كل هذا ونحن في شهر يوليو !!

وعبرت الخطوات الردهة ، وبدأت درجات السلم تهتز تحت وقعها .

كان الضابط يهبط في بطء متزايد . . لم يكن بطء المتردد الوجل ، وإنما كانت خطوات شخص تعاني إرادته تجربة أليمة منهكة .

وكانت بنت أخي قد رفعت رأسها تنظر إلى ، وظلت تصوب نحوي طوال هذا الوقت نظرة جامدة ، خالية من المعنى ، متعالية ، كأنها نظرة الأمير المترفع . وعندما صرت آخر درجة من درجات السلم ، ران على المنزل صمت طويل . .

عندئذ غامت نظرات بنت أخي ورأيت جفونها

تثقل ورأسها ينحنى وكل جسمها يركن إلى جانب المقعد في يأس واستسلام .

ولا أعتقد أن هذا الصمت قد تعدى أكثر من بضع ثوان ، ولكنها كانت ثوانى طويلة ... خيل إلى أننى أرى الرجل خلف الباب وقد رفع يده استعداداً لطرقه ، وأنه يتردد وكأنه يتخذ قراراً خطيراً ، ويتباطأ ليؤخر اللحظة التى سيقرر فيهـــا الأمر بمجرد طرقه على الباب .

وأخيراً سمعنا صوت طرقات هادئة ، لم يكن ذلك فى سرعة المتردد وتعجله ، ولا فى عنف الخجول وقد تغلب على خجله ، وإنما ثلاث طرقات مليئة بطيئة .. طرقات واثقة هادئة كقرار لا رجعة فيه .

وكنت أتوقع — كما كان يحدث فى الماضى —

أن يفتح الباب بعد ذلك مباشرة ، ولكنه ظل مقفلا .

عندئذ اجتاح جوانب نفسى قلق جامح يمور بالحيرة والتساؤل ، وخيل إلى أن كل ثانية تمر فى تدافعها المتزايد كالشلال ، تزيد الموقف تعقيداً وإبهاما .

هل كان يتعين على أن أرد ؟ ولماذا هذا التغيير؟ لماذا يريد هذه الليلة أن يقطع الصمت الذى أكدت تصرفاته السابقة مدى تقديره لتمسكنا به ؟ وماذا كانت هذه الليلة — هذه الليلة بالذات — مقتضيات الكرامة المفاجئة ؟

نظرت إلى بنت أخى علنى أتصيد فى عينيها تشجيعا أو إشارة ، ولكننى لم أر غير جانب وجهها . كانت تنظر إلى مقبض الباب بهذه النظرة الجامدة التى سبق أن استرعت نظرى . ولاحظت وجهها الشاحب وقد

ارتفعت شفتها العليا عن أسنانها المنطبقة فى تقلص مؤلم. عندئذ تهاوت بقايا احتمالى أمام هذه المأساة الدفينة التى برزت فجأة وفاقت بمراحل آلام حيرتى وتساؤلى.

وفى هذه اللحظة سمعنا طرقتين جديدتين على الباب؛ طرقتين اثنتين فقط، ضعيفتين متعجلتين، فهتفت بنت أخى: «إنه سيرحل ...». قالتها فى صوت خفيض يائس، قطع على ترددى، فلم أنتظر بعد ذلك لحظة، وقلت فى صوت واضح: «تفضل يا سيدى».

لماذا أضفت كلمة «يا سيدى»؟ هل لأبين أنى قد دعوت فيه الرجل ولم أدع الضابط العدو؟ أو، على العكس، لأثبت أنى لم أكن أجهل من طرق الباب، وأنى أوجه ندائى إلى هذا الشخص بعينه؟ لا أدرى ... بل ولا أجد ثمة جدوى لهذا التساول. المهم أنى قلت:

«تفضل يا سيدى»، وأنه دخل .

وكنت أتوقع أن أراه كالعادة فى ملابسه المدنية، ولكنه كان مرتديا ملابسه العسكرية ، وأستطيع أن أقول إنه لم يكن يومًا مرتدياً هذه الملابس العسكرية بأكمل مما كان يرتديها ذلك اليوم ، إذا استطعنا أن نفهم من ذلك ما ظهر لى بوضوح من أنه ارتدى هذه الملابس العسكرية وهو يقصد تماما لفت نظرنا إليها وفرض رؤيتها علينا . وكان قد أقفل الباب وانتصب فى المدخل فى تصلب واعتداد ، حتى كدت أشك فى أنه نفس الشخص الذى نعرفه ، وبقى هكذا بضع لحظات معتدلا متصلبا صامتا ، وقد انفرجت قدماه قليلا وسقط ذراعاه فى غير تعبير إلى جانبى جسمه الفارع . وكان وجهه جامداً ساكنا ، حتى ليخيل إلى الناظر إليه أنه ما من شعور أو تعبير

إنسانى يستطيع أن يعمر هذه الصفحة الجرداء .

أما أنا فكنت جالسا فى مقعدى الوثير المنخفض ووجهى فى مستوى يده اليسرى . نظرت إلى هذه اليد فشدهت ، وتعلق نظرى بها وقد شده إليها هذا التعبير الفاجع الذى كان يهز خلجاتها ، مكذبا فى صورة واضحة مؤثرة ما كان يحرص الضابط عليه من جمود وثبات .

وتعلمت فى ذلك اليوم أن اليد — لأنها أقل من الوجه خضوعا لرقابة الإرادة — تستطيع أن تعكس لمن يعرف كيف يلاحظها ، هواجس المرء وخلجاته وعواطفه ، كالوجه تماما وأفضل . فقد جعلت أصابع يده تنفرد وتنثنى ، تتضاغط وتتشابك وتضطرم فيها أعنف الانفعالات ، بينما الوجه وباقى الجسم جامدان هادئان . ثم بدأت مظاهر الحياة تدب فى

العينين ، وخيل إلىَّ ـ حين تحولتا لحظة نحوى ـ أنهما عينا طائر جارح متوحد فى القمم الشاهقة . عيناه تلمعان بين جفون منفرجة مشدودة كأنها جفون مريض يسهده الأرق . ثم ما لبثت العينان أن استقرتا على بنت أخى ولم تتحركا عنها .

وأخيراً هدأت اليدان وقد تجمعت أصابعهما متشبثة بالراحتين .

وانفرجت شفتاه محدثتين صوتا يشبه صوت فتح زجاجة فارغة ، وقال فى صوت حزين مكتوم :

« يتعين علىَّ أن أنهى إليكم أمراً خطيراً . . » .

وكانت بنت أخى تجلس فى مواجهته مطرقة إلى الأرض وهى تلف بين أصابعها خيوط كرة من الصوف تتضاءل متدحرجة على البساط الذى يغطى أرض الغرفة . وكان هذا العمل الآلى هو العمل

الوحيد الذى يمكن أن تقوم به دون أن يتعارض مع اهتمامها البالغ بما يجرى ، ويوفر عليها فى الوقت نفسه الخجل والارتباك .

وعاود الضابط كلامه وهو يبذل مجهودا ظاهرا ، حتى لكأن حياته بأكملها تذوب فى كلماته :

« كل ما قلته طوال هذه الشهور الستة ، كل ما سمعته جدران هذه الغرفة . . . » .

والتقط أنفاسه المبهورة محتفظا بها فى صدره فترة ثم قال : « يجب ... » وزفر هامسا : « يجب أن ننساه » .

وعندئذ تركت بنت أخى يديها تسقطان ببطء بين ركبتيها حيث بقيتا ممدودتين جامدتين كأنهما زورقان جانحان على الرمل . ثم رفعت رأسها فى بطء وواجهت الضابط — لأول مرة — بنظرة من عينيها الباهتتين . وسمعناه يتمتم بضع كلمات بالألمانية وهو يوارى عينيه

خلف راحته كما لو كان لم يحتمل الضوء المنبعث من نظرتها . وبعد ثوان ترك يده تهبط إلى جانبه ، ولكنه كان قد أسدل جفنيه وأصبح بعد ذلك بدوره هو الذى يطارق بوجهه إلى الأرض .

وفتح فمه فأحدثت شفتاه صوتا ملحوظا ، وتكلم فإذا بصوته مكتوم ، مكتوم ... مكتوم :

« لقد رأيت هؤلاء الظافرين » .

وأردف بعد بضع ثوان بصوت أكثر انخفاضا :

« وتكلمت معهم » .

ثم تمتم فى تثاقل مرير :

« لقد سخروا منى » .

ورفع عينيه إلى وهز رأسه فى أسف ثلاث هزات خفيفة ، وأقفل عينيه وأردف :

« لقد قالوا : « ألم تفهم أننا نهزأ بهم ؟ » . لقد قالوا

هذا تماما »، وكرر العبارة باللغة الألمانية . « وقالوا : هل تظن أننا سوف نترك العدو — ببساطة — يرتفع مرة ثانية على حدودنا ؟ أو تظن هذا ؟ »، وضحكوا بشدة ، وجعلوا يضربون على ظهرى فى مرح وهم ينظرون بسخرية فى وجهى ويقولون : « لسنا بموسيقيين مثلك ! ».

وكان صوته وهو ينطق بهذه الكلمات الأخيرة ينطوى على احتقار غامض ، لا أدرى إذا كان يعكس مشاعره نحو الآخرين ، أم كان هذا مجرد تقليد للهجة التى تحدثوا بها إليه :

« عندئذ تكلمت طويلا فى كثير من القوة والانفعال ، فراحوا يرددون : « كفى ... كفى ! السياسة ليست حلم شاعر . لأى سبب تظن أننا قمنا بهذه الحرب ؟ أمن أجل مارشالهم العجوز ؟! » . وضحكوا

ثانية : « لسنا مجانين أو أغبياء . إن الفرصة مواتية أمامنا الآن لكى نهدم عدونا ، وسيكون لنا ذلك . ليس هدم قوته فقط ، وإنما هدم روحه أيضا . روحه على الأخص . ففى روحه يكمن الخطر كله ، وهذا هو ما يشغلنا الان ، وتأكد يا عزيزنا أننا سنستطيع الوصول إلى ما نريد ، متسلحين با بتساماتنا ودهائنا . سنجعل منه كلبا خانعا ذليلا » .

وسكت وقد بدا مبهور الأنفاس . كان مطبقا على فكيه فى شدة أبرزت من استدارة خديه ، حتى أننى رأيت بوضوح عرقا غليظا ملتويا ، نافرا ينبض تحت الجلد .

وفجأة اهتزت كل ملامح وجهه ، كأنما حركتها رعدة داخلية عميقة كتلك التى يحدثها تيار مفاجىء من الهواء ، على سطح بحيرة هادئة ، وتعلقت عيناه

بعيني بنت أخي الصافيتين المتسعتين ، وقال في بطء مهموم بصوت خفيض متسق ، رغم ما فيـــه من حدة وضيق :

« ليس هنـاك من أمل » . وأكمل في صوت أكثر وجوما وانخفاضا وبطأ كأنه يعذب نفسه لهـــذه الفكرة المخزية : «لا أمل . لا أمل » . وفجأة صاح بصوت — على الرغم منه — عال قوى ، بصوت خرج — لدهشتي — واضحا مكتمل النبرات كأنه صيحة البوق ، أو صرخة المستغيث : « لا أمل ! » .

وتبع ذلك الصمت . . .

وخيل إلى بعد قليل أنني سمعته يضحك ... كانت جبهته القلقة المجعدة أشبه ما تكون بكومة من حبال السفن الغليظة الملتوية ، وكانت شفتاه ترتعدان ؛ شفتا مريض ، محمومتان وصفراوان ، رغم لظى الحمى :

« لقد لاموني في قليل من الغضب . قالوا : « ها أنت ذا ترى جيدا ! ها أنت ذا ترى كم أثر فيك بقاؤك هنا ! إن هذا هو الخطر الأكبر !! ولكننا سنشفي أوربا من هذا الوباء ؟ سنغسل أمعاءها من هذا السم ! شرحوا لى هذا كلهم ، آه ! لم يتركوني أجهل شيئا. إنهم يلاطفون كتابكم ، ولكنهم في نفس الوقت ، في بلجيكا ، وفي هولندا ، وفي كل البلاد التي تحتلها جيوشنا ، يضعون من الآن الحواجز والسدود . لم يعد أي كتاب يستطيع المرور ، فيما عدا المؤلفات العلمية البحتة ، كمبادىء الضوء أو حسابات التعدين . . أما مؤلفات الثقافة العامة فممنوعة لا يمر منها كتاب واحد ... أبدا ! » .

وارتفعت نظرته فوق رأسي ، تهوم متخبطة بأركان الحجرة ، وكأنها طائر أضله ظلام الليل . وأخيرا

استقر نظره فى أكثر أركان الحجرة إظلاما ، عند رفوف المكتبة التى يتمدد عليها راسين ورونسار وروسو ، وبقيت عيناه معلقتين هناك ، وارتفع صوته ثانية فى عنف مرتجف :

« لا شيء بمر إطلاقا ، لا شيء ، ولا أى مؤلف من هؤلاء ! » . ثم استرسل كما لو كنا لم نفهم بعد كنه ماقاله ، ولم نقدر ضخامة الخطر :

« ليس الأمر يقتصر على كتابكم الحديثين وحدهم ! ليست فقط مؤلفات بيجى ولا مؤلفات بروست أو برجسون . . . وإنما كل الآخرين أيضا ! كل هؤلاء ! كلهم ! كلهم ! » .

وطافت عيناه مرة أخرى برفوف المكتبة ، وكأنها تحتضن فى يأس أسماء الكتب وهى تلمع فى حنايا الظلمة ، وصاح :

« سوف يطفئون هذه الشعلة تماما ، لن يضيء هذا النور ثانية ! إلى الأبد ! ».

وانطلق صوته عميقا حزينا فى صيحة أخيرة نفاذة، هزت حتى أعماق صدرى، وقد امتد مقطعها الأخير كأنه شكوى والهة منتفضة:

« إلى الأبد ! ».

وخيم الصمت مرة أخرى ...

ولكنه كم كان هذه المرة مظلما وممتدا !

فمن المؤكد أننى عندما كان يخيم الصمت — قبل ذلك — كنت أحس بتدافع الحياة الداخلية الزاخرة بالعواطف الخفية ، والرغبات والأفكار التى تتلاحم وتزاحم بعضها البعض ، مثلما تختلط وتتشعب حياة الحيوانات البحرية تحت صفحة المياه الهادئة .

ولكن خلف هذا الصمت ـ الذى كان يطوينا تلك المرة — لم يكن هناك غير ركود آسن بشع .

* * *

وأخيرا شق ستار هذا الصمت الكثيف ، وكان رقيقا حزينا :

« كان لى صديق . كان أخى أو يزيد . اختلفنا إلى الدرس معًا . وكنا نسكن فى نفس الغرفة فى ستوتجارت . كما قضينا ثلاثة أشهر معا فى نورمبرج . لم يكن أحد منا يفعل شيئا بدون الآخر : كنت أعزف أمامه موسيقاى ، وكان يقرأ لى شعره . كان رقيقا وعاطفيا . ولكنه تركنى . ذهب ليتلو أشعاره فى ميونخ أمام أصدقاء جدد . إنه هو الذى ظل يكتب لى بلا انقطاع طالبا أن أحضر لأقابله ، وهو الذى رأيته

فى باريس مع أصدقائه . إننى أدرك الآن ماذا جعلوا منه !».

وهز رأسه فى بطء ، كأنه يوجه رفضا أليما لفكرة محببة :

« لقد كان أكثرهم سعارا ! كان يخلط الغضب بالضحك . كان أحيانا ينظر إلى ... والنار تملأ عينيه وهو يصيح :« إنه د مل ويجب علينا أن نفرغ رأسه ! ». وكان أحياناً يضربنى بطرف سبابته فى بطنى قائلا : « إنهم يقاسون الآن من الخوف العظيم ! ها ، ها ! إنهم خائفون على جيوبهم و بطونهم ، على تجارتهم وصناعتهم ، إنهم لا يفكرون إلافى هذا ! أما القلة الباقية منهم فإننا نرضى غرورهم ونحذرهم . ها ، ها! ... سوف يكون ذلك سهلا!». كان يضحك وقد تورد كل وجهه وهو يقول : « سوف نشترى روحهم بلقمة من الخبز ! ».

وتنفس وارنر ليستطرد :

« قلت : « وهل تقدرون بالضبط ما أنتم فاعلون؟ هل تقدرون ذلك؟!» . فرد قائلا : « هل تظن أن ذلك يخجلنا ؟! إن فهمنا للأمور ينبع من مصدر آخر » .

تساءلت فى مرارة : « إذن فسوف تهيلون التراب على هذا القبر ؟ إلى الأبد .» فأسرع يقول: « إنها مسألة حياة أو موت ، والقوة إن كانت تكفى للفتح فإنها ليست بكافية فى مجال السيطرة . ونحن نعرف تماما أن جيشنا وحده لا يستطيع شيئا فى سبيل السيطرة الكاملة الدائمة » .

عندئذ صرخت بأعلى صوتى : « ولكن ، هل تكون الروح ثمنا لهذه السيطرة ؟ إنه لثمن باهظ ! » . فأجاب : « إن الروح لا تموت أبدا ، إنها تحيا فى بقايا رمادها ، ويجب علينا أن نبنى لمدى ألف سنة فى المستقبل .. ولكننا قبل أن نبنى يتعين أن نهدم » . عند

ذلك نظرت إليه مصوبا ناظرى فى أعمـــاق عينيه الصافيتين . . . لقد كان مخلصا فيما يقول ، نعم كانت عيناه تنطقان بالصدق والاقتناع .. وفى هذا يكمن أبلغ الخطر ».

وفتح عينيه ، واتسعت حدقتاه ... كأنه يرى أمامه مشهد قتل مروع :

« سوف يفعلون ذلك . . فى نظام ودقة ومهارة ، إننى أعرف جيدا هذه الشياطين المسعورة ! ».

وهز رأسه بشدة ، وخرجت همهمة مبهمة من بين أسنانه المقفلة ، كأنها آهة مرتجفة عنيفة يطلقها صدر مثقل لحبيب مخدوع .

لم يكن قد تحرك فى وقفته ، بل كان كما هو ، جامدا متصلباً فى فتحة الباب ، ذراعاه ممتدان إلى جانبيه كأنهما يحملان يدين من الرصاص الثقيل ، وقد اصفر لونه



فبدا حائلا منطفئا كلون حائط قديم خرب .. فانحنى بجسمه فى بطء إلى الأمام رافعا يده وقد جعل راحتها إلى أسفل، يضم قبضته فى مواجهتنا ويثنى ذراعه محركا إياها فى عنف، بينما كانت ملامح وجهه متوترة فى قوة وتحفز .

وانفرجت شفتاه قليــــلا ، حتى أنى ظننت أنه سوف يلقى إلينا بثورته ، ظننت حقا أنه سيمضى إلى آخر الشوط ، فيحرضنــــا على الثورة ويدفعنا إلى التمرد .

ولكن كلمة واحدة لم تعبر طرفى شفتيه . وإنما أقفل فمه وعينيه مرة أخرى، ثم اعتدل وارتفعت يداه على جانبى جسمه ودارت عند مستوى وجهه فى حركات غير مفهومة ، كأنها بعض طقوس رقصة دينية غامضة . ثم جعل يفرك خديه وجبهته ويدعك جفنيه بأصابعه

الطويلة النحيلة ، وقال :

« لقد قالوا لى : « إنه حقنا وواجبنا أيضا ». واجبنا أيضا ! ! إنه لسعيد حقا ، ذلك الذى يجد بكل هذه البساطة وهذا التأكيد ، طريق واجبه ! » .

وسقط ذراعاه إلى جانبيه ، ثم قال :

« عند مفترق الطرق يقولون لك : « الزم هـــذا الطريق » . وهز رأسه فى أسف ليقول : « ولكننا لا نرى هذا الطريق صاعدا صوب القمم المضيئة البراقة ، وإنما نراه يهبط نحو واد مظلم كئيب ، ويتوغل فى الظلمات المخيفة لغابة قاتمة موحشة ! ... » .

وصمت ليقول فى ابتهال : « يا إلهى ! ألهمنى معرفة طريق واجبى ! » .

ثم قال ، بل صرخ تقريبا :

« إنهـــا المعركة — المعركة الكبرى بين هذه

المطامع الدنيوية البشعة وبين المثل والروح ».

وحدق بثبات حزين مؤلم فى صورة الملاك الخشبى المنقوشة فى أعلى النافذة ، الملاك الرقيق الباسم الذى يشع نورا فى هدوئه السماوى .

وخفت حدة توتره فجأة ، واستراح جسمه قليلا من تصلبه . ونظر بوجهه قليلا إلى الأرض ، ثم رفعه نحونا ليقول :

« لقد طالبت بحق » . قالها فى بساطة طبيعية . « لقد طلبت أن ألحق بفصيلتى فى الميدان ، وقد وافقوا أخيرا على هذه المكرمة ، فقد يكون لى أن أستأنف طريقى ... » .

وخيل إلى أننى رأيت شبح بسمة يطفو فوق شفتيه عندما أضاف موضحا :

« ... إلى الجحيم » .

قالها وهو يرفع ذراعـــه نحو الشرق ، نحو هذه السهول الشاسعة التى سوف ينمو القمح فيها على جثث القتلى .

وكم آلمنى عندئذ منظر المشاعر التى ارتسمت على وجه بنت أخى . كانت صـــفراء شاحبة كالقمر الآفل ، وكانت شفتاها الشبيهتان بحافة آنية عاجية رقيقة ، منفرجتين فى وضع درامى فاجع كأنه قناع أحد تماثيل الأساطير الإغريقية . ورأيت على حافة جبهتها ، عند منبت الشعر ، لآلىء من العرق ، لا تتكون فى بطء ، وإنما تنبثق انبثاقا ، فى سرعة وشدة غريبة .

ولا أعرف إذا كان ورنر فون أبريناك ، قد لاحظ ذلك . فإن عينيه وعينى بنت أخى كانت معلقة ببعضها البعض فى يأس ، كقارب ممسك بالشاطىء

وقت العاصفة ، حتى لكأن بين أعينهما خيطا مشدودا متصلبا يربط كلا منهما بالآخر .

وأمسك أبريناك ، بإحدى يديه ، مقبض الباب ، بينما أمسك الإطار الذى يعلوه باليد الأخرى. وجذب الباب نحوه فى بطء ، دون أن يحرك ناظريه قيد شعرة عن العينين الساهمتين . وقال وفى صوته جمود وانعدام غريب لكل تعبير :

« أرجو لكم ليلة سعيدة ....»

وظننت أنه سوف يقفل الباب ويرحل . ولكنه نظر إلى بنت أخى ، نظر إليها نظرة طويلة وقال بل همس :

« الوداع ! » .

ولم يتحرك ، وإنما ظل جامدا تماما ، وفى وجهه

الجامـــد المتوتر ، كانت عيناه أكثر جمودا وأشد توترا ، وهما مشدودتان إلى عينى بنت أَخى المفتوحتين فى ذهول باهت شاحب . واستمر ذلك . . . استمر لاأدرى كم من الوقت ، حتى حركت الفتاة أخيرا شفتيها ... عندئذ لمعت عينا ورنر ... وسمعت :



« الوداع ! » .

كان يتعين على أن أترقب هذه الكلمة حتى أستطيع أن أسمعها ، ولكنى سمعتها أخيرا ، وسمعها أيضا فون أبريناك . وإذا به يعتـــدل ، ووجهه وكل جسمه يسترخيان فى هدوء كأنما فرغ لتوه من حمام ساخن مريح .

ثم ابتسم ، حتى أن آخر صورة له فى ذهنى ظلت صورة باسمة .

وأقفل الباب وتلاشى وقع أقدامه فى داخل المنزل .

* * *

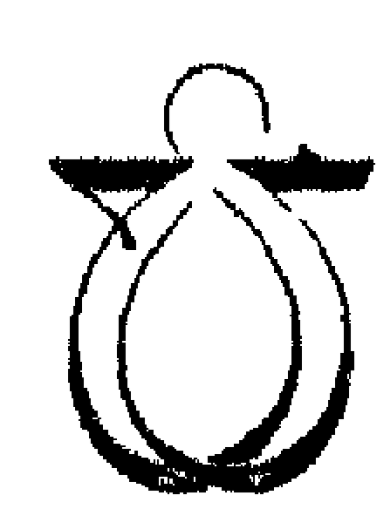
وعندما نزلت فى اليوم التالى لأشرب كوب اللبن الذى تعودته فى الصباح ، كان قد غادر المنزل .

وكانت بنت أخى قد أعدت إفطارنا ... ككل يوم . وقدمت لى الإفطار فى صمت ...

وفرغنا منه فى صمت...

وفى الخارج كانت تلمع خلال الضباب شمس باهتة ، وإن خيل إلى أن الجو كان شديد البرودة . . .

مطبعة التقدم
٤٤ شارع المواردي بالمنيرة
تليفون ٢٦٠٢١١



مؤسسة المطبوعات الحديثة
شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة
الجمهورية العربية المتحدة

٢٠ (عشرون قرشا)

